﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: 49 - 56]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من قيل المكذِّبين إلى الرَّدِّ المُبين

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة إنكارَ المشركين للبعثِ، مع ذكر طائفةٍ ممّا قالوه في الاستفهام الإنكاريِّ؛ ناسب ذِكر الرَّدِّ عليهم في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: لا محالة، سيُحشر الجميع، المتقدِّمون والمتأخِّرون، إلى يوم معلوم لا تأخير فيه، فهو انتقالٌ من قيل المكذِّبين إلى الرَّدِّ عليهم، وإلقامهم الحجر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيقَٰتِ﴾: جذر الكلمة هو (وقت)، والميقات هو الوقت المُحدَّد لأمرٍ ما، والمقصود هنا: أنَّ الجميع سيُحشرون إلى أجل معلوم قد علمه الله وحده، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر، وهو يوم القيامة، والوَقتُ: نهاية الزَّمان المفروض للعمل، ولهذا لا يكاد يُقال إلّا مقدَّرًا[1]، نحو قولهم: وقَّتُّ كذا: جعلت له وقتًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النّساء: 103]، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيء، والوعد الَّذي جُعِل له وقتٌ[2]، قال ﷺ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ﴾ [الدُّخان: 40]، ويُطلَق الميقاتُ على المكان الَّذي يُجعَل وقتًا للشَّيء، كميقاتِ الحجِّ[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (وقت).
(2) الراغب، المفردات: (وقت).
(3) الراغب، المفردات: (وقت).

2) ﴿زَقُّومٍ﴾: جذر الكلمة هو (زقم)، ويعني في اللُّغة: ابتلاع الشَّيء[1]، ويُقال: (زَقَمَ الطَّعام)؛ إذا ابتلعه على كُرهٍ ومشقَّة، وبات يتزقَّم اللَّبن؛ إذا أفرط في شربه[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدُّخان: 43 - 44]، عبارة عن أطعمة كريهة في النّار، ومنه استُعير: زَقَمَ فلان، وتَزَقَّمَ؛ إذا ابتلع شيئًا كريهًا[3].

وسُمّيت شجرة الزَّقّوم بهذا الاسم؛ لشدَّة مرارتها وحرارتها وقبح طعمها، وقد جعلها الله طعامًا لأهل النّار، فاسم (الزَّقّوم) في أصله يدلُّ على الاشمئزاز والعذاب، وجاء في الآية؛ ليُجسِّد شناعة المآل وسوء المصير للمكذِّبين بيوم الدّين.

3) ﴿ٱلْهِيمِ﴾: جَذرُ الكَلِمَةِ هوَ (هيم)، وتَدُلُّ في اللُّغَةِ على العَطَشِ الشَّديدِ الدّائِم، والهيمُ: الإبِلُ المُصابَةُ بداءِ (الهيام)، وهوَ مَرَضٌ يَجعَلُها تَشرَبُ الماءَ بكَثرَةٍ دونَ أن تَرتَوِيَ، فتَشرَبَ حَتَّى تَموتَ، أو تَسقَمَ سَقَمًا شَديدًا[4]، فشُبِّهَ شُربُ أهلِ النّارِ مِنَ الحَميمِ بشُربِ الإبِلِ الهيمِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيات الكريمةُ الرَّدَّ الحاسم على مَن أنكَر البعث، وبيان ما ينتظرهم من الحساب والعقاب في مشهدٍ بليغِ التَّهويل والتَّصوير، فاللّهُ تعالى يأمر نبيَّه ﷺ، أن يقرِّر للنّاس هذه الحقيقة الكبرى: أنَّ الخلقَ كلَّهم - أوَّلين وآخرين - سيُبعثون، ويُجمعون إلى ميقاتٍ محدَّد، في يوم لا يَتخلَّف عنه أحد، وهو يوم القيامة، الَّذي لا يعلم موعده إلّا الله، لكنَّه آتٍ لا محالة.

استفهامُ المكذِّبين يتبعه ردٌّ مفحم بإلقامهم الحجر وإلزامهم الحجَّة

(1) ابن سيده، المُحكم: (زقم).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (زقم).
(3) الراغب، المفردات: (زقم).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.
(5) ابن عبّاس، مسائل ابن الأزرق (غريب القرآن): 1/ 222.

ثمَّ يُلتفت الخطاب إلى أولئك الضّالّين المكذِّبين، فيقال لهم: إنَّكم لآكلون من شجرة الزَّقّوم، وشاربون عليها من ماءٍ حارٍّ لا يُطفئ ظمأهم، كحال الإبل ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الَّتي تشرب، ولا ترتوي، ثمَّ يُختَم هذا المشهد الجليل بقوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: هذا أوَّل ما يُقدَّم لهم، والنُّزُل هو ما يُهيَّأ للضَّيف عند أوَّل قدومه، فكيف بما بعده؟ فما ذكر من الزَّقّوم، والشَّراب غذاؤهم، يَومَ الدّينِ يوم يجازون بأعمالهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عن السّابق:

الانتقال من الاستهزاء إلى التَّقرير قطعًا على الخصمِ الألدِّ

الفصل بين قولهم المستنكِر للبعث: ﴿أَإِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، جاء فصلًا يُبرز التَّحوُّل من حكاية مقالتهم المنكرة إلى خطابٍ إلهيٍّ مباشرٍ يتولّاه الرَّسول بالبلاغ؛ ليُفصِم الاستهزاء السّابق بجوابٍ يفيد الحسم والقطع، "فيكون قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا لمناسبة حكاية قولهم: ﴿أَإِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾"[2]، فاستُؤنِفَت الجُملةُ بـ ﴿قُلۡ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما بَعدَها رَدٌّ مُفحِمٌ لا يَحتَمِلُ التَّرَدُّدَ، فجاءَ الفَصلُ بهَذا الأُسلوبِ؛ لإحداثِ ما يُشبِهُ الوَقفَةَ الخِطابيَّةَ بَينَ الاستِهزاءِ والرَّدِّ، وليَكونَ الكَلامُ الجَوابيُّ أوقَعَ في النَّفسِ وأبلَغَ في البَيانِ.

تعيينُ المُخاطَب وأثره في بيان مقصود الخطاب:

كلُّ من يقتدي برسول الله ﷺ في الدَّعوةِ؛ فداخلٌ في مضمون الخطاب

المخاطَب في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هو النَّبيُّ محمَّد ﷺ، والتَّعبير بالأمر الإلهيِّ ﴿قُلۡ﴾ يُظهر أنَّ ما يأتي بعده وحيٌ يُلقى على لسان الرَّسول خطابًا إلى من سبق ذكرهم من المكذِّبين

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 236.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 307.

بالبعث من أصحاب الشِّمال، والخطابُ ليس مقتصرًا على رسولِ اللّه ﷺ ، بل هو خطابٌ لكلِّ من يقومُ بالدَّعوةِ إلى دين اللّه تعالى، ويستطيع مخاطبةَ المنكرين المكذِّبين، في كلِّ عصرٍ، وهو تشريعٌ للجوابِ عن أسئلة المتشكِّكين، بقطع النَّظر عن ألفاظِهم وعباراتهم.

نكتة حذف المقول له:

تعظيم القول بذكره وتحقير المقول له بإهمالِه

حُذِف المتعلِّق بفعل القول في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾ دون أن يقول: (قل لهم)، يُقصد به الإيجاز مع قوَّة الدَّلالة، فالحَذفُ جاءَ إعلاءً لِشَأنِ المَقولِ لا لِلمَقولِ لَهُ، فكَأنَّ الخِطابَ لَم يُعنَ بذِكرِهم لِحَقارَتِهم ووُضوحِ حالِهم، وأرادَ أن يُبرِزَ مَضمونَ الرَّدِّ، ويُعليَ مِن نَبرَتِه الجازِمَة، فكَأنَّما قيلَ: لَيسَ المُهِمُّ مَن يُخاطَبُ، بَلِ المُهِمُّ ما يُقالُ؛ لأنَّهُ قَولٌ حَقٌّ لا يُجادِلُ فيهِ إلّا مُكابِرٌ، وفي ذَلِكَ تَسفيهٌ ضِمنيٌّ لِلمُخاطَبينَ، وتَوبيخٌ غَيرُ مُباشِرٍ لَهُم.

دلالة تعريف لفظِ: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾:

الاستغراق الزَّمنيُّ لبعث النّاس جميعًا

المراد بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من يصدق عليه وصف (أوَّل) بالنِّسبة لمن بعدهم، والمراد بـ (الآخرين) من يصدق عليه وصف آخر بالنِّسبة لمن قبله[1]، ويحملُ تعريفُ لفظي ﴿ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾ دلالةً بلاغيَّةً على العموم والاستغراق[2]، تُفيد أنَّ البعث ليس خاصًّا بجيلٍ دون جيل، ولا أمَّة دون أخرى، بل هو شأنٌ عامٌّ شاملٌ لكلِّ مَن مضى من البشر ومَن سيأتي، من أوَّل الخلق إلى آخره، والتَّعريف بـ(الـ) في الموضعين أفاد الاستغراق الجنسيَّ الزَّمنيَّ، أي: إنَّ جميع من يوصَف بأنَّه من الأوَّلين - وهم الأمم السّابقة - وجميع من يُعدُّ من الآخرين - وهم المتأخِّرون من هذه الأمَّة وسواها - داخلون في هذا الجمع الَّذي لا مفرَّ منه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 308.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 100.

دلالة تكرار ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في السّورة:

ربـطُ الأواصـر فـي الـسّـورة كـلِّـهـا بـذكـر الأزمنة المتقدّمة واللّاحقة

إنَّ في تكرار لفظي ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في السّورةِ له دلالة بليغة في ربطِ أواصر السّورةِ، فلمّا تقدَّم ذكر الأوَّلين والآخرين في قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ ناسب ذكرهم للمرَّةِ الثّالثة للتَّعريض بمن لم يكن من ثلَّتهم وقليلهم، وأنَّه في الطَّرف الآخر في أصحاب الشِّمال، ففي تكرار ذكرهم تذكير بالأوَّليَّة المتقدِّمة الَّتي جرت عليها السُّنن من العقاب والجزاء، وتحذير من غفلةِ الآخرين.

بلاغة التَّوكيد وفائدته:

تكثيف الحُجَّة وقهر الشَّكِّ في مطابقة الرَّدِّ على الشُّبَه

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، تتجلَّى بلاغة التَّوكيد في أبهى صورها، فقد تكاثرت فيه أدوات التَّوكيد، وتعدَّدت مراتبه، فجاء التَّوكيد بثلاثة بأداةِ ﴿إِنَّ﴾: وهي حرف توكيد يفيد تثبيت مضمون الجملة، فافتتحت به الجملة؛ لإزالة الشَّكِّ الَّذي أبداه الكافرون حين أنكروا البعث، وباللّام الدّاخلة على خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾، وهي من أقوى أدوات التَّوكيد، تدخل على الجملة الاسميَّة بعد ﴿إِنَّ﴾؛ لإفادة العناية والاهتمام بالخبر، وكأنَّ المعنى: (حقًّا وبلا مرية إنَّ الأوَّلينَ والآخِرينَ لَمجموعونَ)، وبالأسلوب الخبريِّ نفسه؛ إذ إنَّ الجملة بمجملها تقريرٌ لخبر صادق لا يحتمل التَّردُّد، وهو بيان يقينيٌّ صريح من عند الله، يُلقَى على أسماع المكذِّبين بعد تساؤلهم وإنكارهم، فجاء على صورة جملة اسميَّة تُفيد الثُّبوت والاستمرار، فجاء الرَّدُّ مؤكَّدًا؛ ليطابق قوَّة الشُّبهة في نفوسهم، ويقهر التَّردُّد الَّذي تمكَّن من قلوبهم، وليُبرز أنَّ الأمر ليس محلَّ نقاش ولا تأويل، بل هو يقينٌ ثابتٌ واقعٌ لا محالة.

نكتة العدول عن لفظ البعث إلى الجمع:

بلاغةُ المفردةِ القرآنيَّة في الرَّدِّ على ألفاظِ المُنكرين وزيادة

عدل النَّظم عن مطابقة لفظ البعث في قوله: ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ إلى لفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ وذلك لنكتة بيانيَّة تستبطن مقاصد عليا من جهة المعنى والبيان، تتجاوز مجرَّد مجاراة ألفاظ المكذِّبين الَّذين قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، فمعنى ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ أنَّهم يُبعَثون، ويُحشَرون جميعًا، وليس البعث على أفواج في أزمان مختلفة، كما كان موت النّاس في الدُّنيا متدرِّجًا، بل يُبعث الأوَّلون والآخرون في يوم واحد[1]، فإنَّ لفظ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ أصرح وأوسع دلالة من (مبعوثون)؛ إذ يُفيد البعثَ والنَّصَّ على الجمعِ، وهو الأنسبُ والأوفر بقوله: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ ففيه ما يُشير إلى القَسْر والسَّوْق بالإضافةِ إلى البعث، فهو أوقع في النَّفس وأبلغ في التَّهديد، كما أنَّ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ يدلُّ على انتقالهم إلى غاية البعث وهي الميقات المعلوم، في حين أنَّ ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ ينحصر في بدء الإحياء.

نكتة التَّعبير بصيغة المفعول ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾:

الجمعُ أمرٌ محتومٌ وبجزاء الحقِّ مختومٌ

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة المفعول في قوله تعالى: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ بَدَلًا مِنَ التَّعبير بالفِعلِ، فلم يقل: (سَيُجمَعونَ)؛ وذلك لإفادةِ تَحَقُّق الفِعلِ فيهم على وجهِ القَسرِ واللُّزوم، أي: إنَّ الجَمعَ واقِعٌ بهِمْ لا مَحالَةَ، لا اختيارَ لَهُم فيهِ، ولا مَهرَبَ مِنهُ، فهوَ لَيسَ أمرًا مُعَلَّقًا بإرادَتِهِم، ولا مَشروطًا بإيمانِهِم، بَل هوَ قَدَرٌ مُبرَمٌ واقِعٌ عَلَيهِم، وفي ذَلِكَ مِنَ التَّهديدِ ما لا يَكونُ في الفِعلِ المُجَرَّدِ.

بلاغة التَّضمين وغرضه:

ضُمِّن لفظ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ معنى (مسوقون)، فتعلَّق به الجارُّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 308.

والمجرور ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾، الَّتي تُستعمَل لانتهاء الغاية[1]، وإلّا فإنَّ ظاهر ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ أن يعدّى بحرف (في) الَّتي هي للوعاء[2]، فاستُعمِل لفظ الجمعِ؛ للدَّلالة على معناه، وحرف ﴿إِلَىٰ﴾ للدَّلالة على السَّوْق، وهو تضمين بديع يحمل الإيجاز اللَّفظيَّ، وهذا التَّضمين البَلاغيُّ له دلالته القويَّة في السّياق، فهو لا يكتفي بإفادة الحشر والبعث، بل يضيف معنى القَسر والإرغام، فهُم لا يُجمعون فقط، بل يُساقون سوقًا إلى موعد محتوم، لا يملكون منه فكاكًا.

إظهارُ لفظ الجمعِ والإيماء إلى معنى السّوق سوقٌ للمعاني وجمعٌ للدَّلالات

بلاغة استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾ دون اللّام؛ لأنَّه أدلُّ على البعث من اللّام، ومجيء اللّام في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التَّغابن: 9]، وقال هنا: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ ولم يقل: (لميقاتنا)، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وسبب ذلك أنَّه لمّا كان ذكر الجمع جوابًا للمنكرين المستبعدين؛ ناسبَ ذكرَ ﴿إِلَىٰ﴾ الدّالَّة على انتهاء الغايةِ، وذلك أنَّ إنكارهم كان للبعث وما فيه، فأثبت بلوغه والانتهاء إليه بالحرفِ الَّذي لا يقبل التَّأويل.

انتقاء الحرف القرآنيّ ملحوظٌ فيه السّياق الحجاجيُّ

بلاغة استعمال مفردة ﴿مِيقَٰتِ﴾ مادَّة وصيغة:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿مِيقَٰتِ﴾ بهذه الصّيغة، في قوله تعالى: ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ للدَّلالة على إرادة الزَّمان واحتمال المكان[3]، أي: زمان ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ ومكانه، أي: معيَّن عند الله، ومن شأنه أن يعلم بما عنده من الأمارات، والميقات: ما وُقِّت به الشَّيء من زمان أو مكان إلى حدّ[4].

احتمال الدَّلالة الزَّمانيَّة والمكانيَّة لصيغة بالبعث في زمنٍ لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 310.
(2) المبرّد، المُقتضب: 4/ 139.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 308.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 413.

وفي استعمال هذه المفردة دلالة على التَّحديد والانضباط الزَّمنيِّ؛ إذ إنَّ مادَّة (وقت) تفيد التَّعيين المحكم للزَّمان، فجاء استعمال ﴿مِيقَٰتِ﴾؛ ليفيد أنَّ يوم البعث مضبوط لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر، مقدَّر محسوب عند الله لا محالة واقع، كما أنَّ صيغة ﴿مِيقَٰتِ﴾ على وزن (مِفعال) تدلُّ على الظَّرف الزَّمنيِّ المحدَّد الَّذي لا يتغيَّر، وتوحي بأنَّ الأمر ليس احتمالًا أو ظنًّا، بل هو موعد قاطع لا لبس فيه؛ فناسب مجيئه في معرض الرَّدِّ على استبعاد الكُفّار حصول البعث؛ ليثبت أنَّه مُحدَّد في علم الله كأمر قضائيٍّ مُسطَّر لا يخرج عنه أحد، فيه سوق للخلق كلِّهم إليه قسرًا وإلزامًا، فيكون في هذا التَّعبير توكيد لحتميَّة البعث ويقينيَّته في مقابل شكِّهم وسخريتهم، وذلك أبلغ في تفنيد الإنكار وأشدُّ في الرَّدِّ من أي تعبير آخر.

دلالة إضافة ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ﴾:

أُضيف لفظ ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ "لأنَّ التَّجمُّع واقع في ذلك اليوم، وإذا كان التَّجمُّع الواقع في اليوم واقعًا في ذلك الميقات؛ كانت بين الميقات واليوم ملابسة صحَّحت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة، وهذا أدقُّ من جعل الإضافة بيانيَّة، وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه في ذلك اليوم الَّذي جحدوه"[1]، ولم يقل: (إلى ميقاتٍ معلوم)، وهذه الصّيغة المختارة تحمل نكتة بلاغيَّة بديعة، تَظهَرُ حين يُتأمَّل في الفرق بين التَّعبيرين، فلو قيل: (ميقات معلوم)؛ لكان التَّركيز على زمنٍ معلوم في ذاته، دون أن يُفاد ما إذا كان له ارتباط بحدثٍ مخصوص، أمّا قوله: ﴿مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ ففيه تخصيصٌ دقيقٌ لمضمون الموعد؛ إذ أُضيف الميقاتُ إلى ﴿يَوۡمٖ﴾ مخصوص، فدلَّ ذلك على أنَّ الزَّمن المحدَّد ليس مطلقًا، بل هو ميقاتٌ لذلك اليوم المعلوم

تحديد الموعد وتكثيف إيقاع الحشر بيومٍ معلومٍ في الأذهانِ أنَّه واقع

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 309.

بعينه، لا غيره، أي: إنَّ الاجتماع لا يكون في أيِّ وقت، بل في الموعد المقدَّر لذلك اليوم العظيم، المعروف عند الله في سابق علمه، وهو يوم القيامة.

نكتة تنكير ﴿يَوْمٍ﴾:

وصف اليوم النَّكرة باعث على الفخامة ومثير للرَّهبة

نكتةُ تنكير لفظ ﴿يَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ بدلَ أن يُقال: ميقات اليوم المعلوم، تكمن في دقَّة التَّصوير البلاغيِّ والتَّهويليِّ[1]، فإنَّ التَّنكير هنا لا يُشعر بالتَّعريف الذِّهنيِّ الَّذي قد يُضعف من أثر الوعيد، بل يفيد تفخيم هذا اليوم وتغليظ شأنه، كأنَّه يومٌ لا يُشبهه يوم، مجهولٌ في تعيين وقوعه، معلومٌ في علم الله وحده، وهو الَّذي سيجتمع فيه الأوَّلون والآخرون من دون أن يكون لهم به عهد سابق، فالتَّنكير إذًا يُكسِب اللَّفظ رهبةً وغرابة، ويقطع عن السّامع مألوف التَّصوُّرات، ويجعله يتطلَّع إلى هذا اليوم العجيب الَّذي خُصَّ بالجمع، وقُرِن بالعلم الإلهيِّ، وهذا أنسب ما يكون في مقام الرَّدِّ على مكذِّبي البعث؛ إذ يُلقى في روعهم أنَّهم يُساقون إلى يومٍ فذٍّ، غير مسبوق في ذاكرة، لا يُدرِكون حقيقته، ولا يستطيعون منه فكاكًا.

فائدة وصف اليوم بالمعلوم بصيغة المفعول:

علم وقتِ وقوعِ القيامة من خصوصيّات توحيد الرُّبوبيَّة

وصفُ (اليوم) بالمعلوم بصيغة المفعول، في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، إنَّما جيء به تنصيصًا على تحقُّق هذا اليوم في علم الله ﷻ، وكشفًا عن أنَّه ليس مجهولًا في أمره أو غامضًا في وقوعه، بل هو يومٌ مُعيَّنٌ لا يتخلَّف، مَحفوظٌ في علم الله منذ الأزل، لا يخفى على من أراد الله له البصيرة، وفي استعمال صيغة المفعول – وهو مقتضى الظّاهر – بيان اختصاص علمه من جهة العالِم العليم، أي: إنَّ اليوم مفعولٌ به للعلم، ممّا يوحي بأنَّ شأنه

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

ليس من شؤون البشر الَّتي يُختلَف فيها، أو يُتنازع حولها، بل هو أمرٌ ثابتٌ مَقضيٌّ به، لا مدخل لأوهام المكذِّبين فيه.

ثمَّ إنَّ في هذه الصّيغة تنبيهًا إلى وجهٍ آخر، وهو تحذير المخاطَبين، فإنَّ ذكر اليوم بهذا الوصف يوقِظ في نفوسهم اليقين بأنَّ هذا اليوم ليس من قبيل الفرضيّات أو التَّهويلات، بل هو مُقرَّرٌ في جدول الغيب، موعودٌ عند من لا يُخلف الميعاد.

دلالة حرف التَّراخي ونوعه:

احتمال التَّراخي الرُّتبيّ والزَّمنيّ لا يمنع من إرادتهما معًا

حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ يحتمل التَّراخي الزَّمانيَّ، أي: لمّا كان زمانُ البعثِ متراخيًا عن نزول القرآن؛ عبَّر بأداته[1]، ويحتمل التَّراخي الرُّتبيَّ، فإنَّ في التَّصريح بتفصيل جزائهم في ذلك اليوم ما هو أعظم وقعًا في النُّفوس من التَّعريض الإجماليِّ بالوعيد الَّذي استُفيد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ﴾، وهذا التَّراخي الرُّتبيُّ بمنزلة الاعتراض بين جملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾، وجملة: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾[2]، فإنَّ استعمال حرف ﴿ثُمَّ﴾ هنا هو على غير مقتضى التَّرتيب الزَّمنيِّ وحده، بل لحكمة بلاغيَّة أرفع، تنبني على ما تقرَّر في علم البيان من أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على التَّراخي، وقد يُراد به التَّراخي في الرُّتبة والتَّهويل في الشَّأن، لا في الزَّمن فقط، والأوفق في ذلك أنَّ التَّراخي ملاحظٌ فيه الأمران.

بلاغة الخطاب في إبلاغ الضّالين المكذِّبين بجزائهم:

الخطاب في هذه الآية موجَّهٌ مباشرة إلى المقول إليهم ما أُمِر الرَّسول ﷺ بتبليغه، في قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وهم أهل مكَّة ومن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 413.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 309.

في مثل حالهم[1]، فهو استمرار في السّياق دون التفات؛ إذ لم يأتِ انتقال من ضمير إلى آخر على خلاف الأصل، بل ظلَّ الخطاب مستقرًّا في وجهته؛ موجَّهًا إلى أولئك الضّالّينَ المكذِّبينَ، دون أن يطرأ عليه تحويل في الضَّمائر أو تغيير في المخاطَب[2]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، تتجلّى بلاغة الخطاب المباشر في سياق الاستمرار الطَّبيعيِّ للحديث، دون حاجة إلى افتراض الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب؛ إذ لا يلزم من استخدام ضمير المخاطَب هنا أنَّه سبق بسياق الغيبة بالضَّرورة، بل إنَّما يُراد تثبيت المسؤوليَّة على السّامعين، وتقرير مضمون العقوبة لهم بوجه صريح ومباشر.

مباغتةُ المكذِّبين بواقعهم والضّالين بحقيقتهم تثويرٌ للحقِّ في نفوسِ أهلِه

بلاغة التَّناسب بين الألفاظ:

في نداء المشركينَ بوصفَي الضَّلال والتَّكذيب، دلالة على أنَّ هذين الوصفين هما السَّبب فيما لحقهم من الجزاء السَّيِّئ، ووصفهم بالضّالّينَ المكذِّبينَ يتَّسق، ويتناسب مع قولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ إذ هو تصريح بكفرهم وإنكارهم للبعث، وهو محور ضلالهم وتكذيبهم، وقد جاء التَّعبير بهذين الوصفين إشارة واضحة إلى طبيعة موقفهم من البعث.

نعتُ الضّالّين المكذِّبين بأوصافهم عدالةٌ في اللَّفظِ وتقويم للسُّلوك

توجيهُ تخصيص وصفي الضَّلال والتَّكذيب بالذِّكر:

خصَّ النَّظم الكريمُ المشركين بوصفَي الضَّلال والتَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالذِّكر، دون غيرِها من الأوصافِ، ذلك أنَّ الضَّلال يدلُّ على انحراف العقل عن السبيل، والتَّكذيب يدلُّ على انحراف النَّفسِ عن الخلق القويم، ورفض التَّصديق رغم ظهور البرهان، وكلاهما يُمثِّلان جوهرَ

اقترانُ وصفي الضَّلال والتَّكذيب دليلُ اتِّباع الهوى واقتفاء الغواية

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 309.

موقفِهم من دعوى البعث، واقترانُ الوصفين دليلٌ على أنَّ الهوى قادهم إلى الضَّلال فالتَّكذيب، وتكذيبهم هو علَّة بقائهم على الضَّلال، ولأن البعث كان عندهم موضع المكابرة والإنكار، فجاء وصفُهم بأخصِّ صفاتهم المتعلِّقة بهذا الموطن من الإنكار؛ ليكون الخطاب أشدَّ تصويبًا للموضع الَّذي ضلّوا فيه، وأقوى تسديدًا للرَّدِّ عليهم حيث وقع الإنكارُ منهم.

توجيهُ متشابه ذكر الضَّلال والتَّكذيب تقديمًا وتأخيرًا في وسط السّورة وآخرها:

عند توبيخ المشركين ابتدأ بضلالِهم وعند ذكر مصيرهم ابتدأ بعلَّة ضلالهم

قُدِّم وصفُ الضَّلال على التَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ توبيخ مباشر للكفّار الَّذين سبق ذكرُهم، وقد كانت بدايتهم بالضَّلال عن الحقِّ؛ إذ أشركوا باللّه، ولم يهتدوا إليه، ثمَّ أضافوا إلى ذلك التَّكذيب بالبعث بدلَ أن يتَّبعوا سبلَ الهداية، فجاء التَّرتيب مطابقًا لواقع حالهم: ضلال فتكذيب.

أمّا تعكيس التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقد تقدَّم وصف التَّكذيب على الضَّلال؛ لأنَّ السّياق هناك ليس توبيخًا مباشرًا، بل بيان لحال الأشقياء، بأنَّ علَّة البقاء على الضَّلال الَّذي ابتدؤوه هو التَّكذيب، وتقديم الضَّلال بأبشع ما فيه، وهو التَّكذيب.

الضَّلالُ والتَّكذيب المُمنهَج ليس كالطّارئ

فائدة التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾:

إنَّ التَّعبير عن أصحاب الشِّمال بلفظي ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ و﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل بدلًا من استعمال الفعل (ضلّوا، وكذَّبوا) له دلالة بلاغيَّة عميقة، تتناسب والسّياقَ الوعيديَّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، ففي صيغة اسم الفاعل ديمومةٌ وثباتٌ واستمرارٌ، وهو ما يتَّسق مع تكرار فعل (كانوا) في سياق

وصفِ كفرِهم، بخلاف الفعل الَّذي قد يُفيد مجرَّد الوقوع في الزَّمن الماضي أو المضارع.

دلالة اقتران وصف الضَّلال بالتَّكذيب:

الضَّلال بداية الطَّريق فإذا ترسَّخ؛ أصبح تكذيبًا، والتَّكذيب ينقلب علَّة بعد أن كان نتيجة

اقتران وصفَي ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ و﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، جاء بحكمة بلاغيَّة دقيقة، تُظهر تدرُّج الانحراف من أولى مراتبه إلى منتهاها، فالضَّلال انحرافٌ عن الطَّريق المستقيم عن جهلٍ، وهو غالبًا ما يكون البداية، والانحراف الأوَّل الَّذي يُبتلى به القلب؛ إذا لم يُحصَّن بنور اليقين أشبه بالتّيه، أو التَّخبُّط في الظُّلُمات، فإذا تمكَّن الضَّلال من صاحبه، ولم يَفق إلى رشد؛ انتقل إلى مرتبة أشدَّ، هي التَّكذيب.

والتَّكذيب - بخلاف الضَّلال - لا يقع إلّا مع بلوغ الدَّعوة وقيام الحُجَّة وظهور البيان، فهو موقف عناد وجحود، لا مجرَّد غياب للبصيرة، ومن ثَمَّ فإنَّ التَّكذيب هنا يتضمَّن الرَّدَّ العمديَّ للحقِّ بعد علمه، ولذلك كان أشدَّ جرمًا، وأعظم استحقاقًا للعذاب.

ففي هذا التَّرتيب: الضَّلال أوَّل الانحراف عن الحقِّ، والتَّكذيب نهايته المتعمَّدة، وقد جمعهما النَّظم القرآنيُّ؛ ليبيِّن أنَّ الضّالَّ إذا أصرَّ على ضلاله، ولم يتداركه الهدى؛ انحدر إلى التَّكذيب، ويصبح التَّكذيب - بعد أن كان نتيجة - علَّة الضَّلال.

وقد جاء هذا الجمع في مقام تهديد وإنذار؛ إذ يواجَه به المكذِّبون المعاندون في مشهد وعيدهم في الآخرة، فناسب أن يواجَهوا بما يُعري حالهم في الدُّنيا، الضَّلال الَّذي أورثهم التَّكذيب، والتَّكذيب الَّذي أورثهم العذاب.

نكتة حذف المتعلَّق بـ ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾:

حُذِف المتعلَّق بـ ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، فلم يقل: الضّالّون عن الحقِّ، ولا المكذِّبون بالبعث، فإنَّ هذا له دلالة بلاغيَّة عميقة في

نظم القرآن، تتجاوز مجرَّد الإيجاز إلى غرضٍ أرفع من مقتضيات البيان، وهو تجريدهم للوصفِ بالضَّلال والتَّكذيب؛ للتَّهويل والمبالغة والقصر، فهُم المكذِّبون على الحقيقة والضّالّون عنها دون سواهم، وكأنَّه انطمس منهم كلُّ وصف آخر، فلم يعودوا يُعرَفون إلّا بكونهم ضالّين مكذِّبين، حتَّى لكأنَّ كلَّ من وُصِف بالضَّلال والتَّكذيب من قبل أو من بعد إنَّما يُقاس عليهم، أو يُلحق بهم.

تعريف المشركين بألقابٍ مطلقةٍ عن التَّقييد أرسخ في التَّهويل وأشدُّ في التَّهوين

وحين يُطلَق الوصف دون متعلِّق، يتحوَّل من وصف جزئيٍّ إلى لقب شامل، فيه تثبيت للصِّفة لا يُدانيه بيان، فكأنَّ المخاطَبين لم يضلّوا في أمر واحد، أو يُكذِّبوا بجزئيَّة محدَّدة، بل هم في ضلال مطلق، وتكذيب مطلق، يحيط بجوانب اعتقادهم وسلوكهم، فلا وجه لحصره بذكر مفعول خاصٍّ.

بلاغة استعمال مفردة الأكل:

استعمال مفردة ﴿لَآكِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾؛ بدلًا من التَّعبير بفعل (تذوقون) - كما هو شائع في موارد العذاب في القرآن - جاء لما يقتضيه السّياق من التَّشديد والتَّصوير الحسّيِّ لمشهد العقاب، فإنَّ الذَّوق غالبًا ما يُستعمَل؛ للدَّلالة على نيل شيء يسير منه، كقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النَّبأ: 30]، فالذَّوق "مُلابسَة يحسن بها الطَّعم"[1].

لمّا ذكر الزَّقّوم وأكله عذابًا؛ ناسب ذكر الأكل دون الذَّوق لما يقتضيه الذَّوق من التَّخفيف

فيما الأكل يدلُّ على المباشرة الكاملة والتَّناول والإلجاء إلى الاستهلاك، لا مجرَّد الإحساس أو اختبار الطَّعم، وقد وافق هذا الاستعمال موضعه؛ إذ جاء بعد قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، وهذا الخطاب توبيخيٌّ مباشر يحمل طابعَ الزَّجر والوعيد، فجاءت الجملة التّالية مبنيَّة على الإخبار بواقع مُحتَّم لا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 310.

مفرَّ منه: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾، فالأكل هنا لا يُفهم على أنَّه اختيار، بل هو إلجاء اضطراريٌّ، ويدلُّ عليه ما بعده من قول: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، فليس مجرَّد أكلٍ عرضي، بل وامتلاءٌ قسريٌّ من شجرٍ مريرٍ خبيثٍ طعامًا دائمًا لهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدُّخان: 43 - 44]، والزَّقّوم في ذاته ليس شيئًا يُراد أكله، أو يُستلذُّ به، بل يُستكرَه أكله، وتُستقذر رائحته، لكنَّهم يُساقون إليه، فيأكلونه اضطرارًا لا لذَّة، لذلك جاء التَّعبير بالأكل لا الذَّوق؛ لإفادة الدَّوام، والإلجاء، والاشتمال التّامِّ على العذاب، ممّا يعمُّ الجوارح والباطن معًا، وهو أشدُّ مع الزَّقّوم من ذكر مجرَّد الطُّعوم.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿لَآكِلُونَ﴾:

أكلُ الزَّقّوم ثابتٌ لا مفلتَ منه ولا مهرب

التَّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ لا يدلُّ على مجرَّد الحدوث، كما هو شأن الفعل الماضي أو المضارع، بل يُشعر بالتَّلبُّس بالحال والثَّبات عليها، ولذلك يُستعمَل في مقام التَّصوير لما يكون وصفًا راسخًا أو حالًا ملازمًا، وفي هذا الموضع، لمّا كان السّياق سياق وعيد وإظهار عاقبة المكذِّبين بالبعث، جاء الوصف باسم الفاعل؛ للدَّلالة على أنَّهم - لا محالة - واقعون في هذا الفعل، آكلون - لا محالة - شاؤوا أم أبَوا، وليسوا مجرَّد من سيتعرَّضون للأكل في لحظة عابرة.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن شَجَرٍ﴾:

دلالةُ (من) على الابتداء والتَّبعيض متكاملٌ في الآية

حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾، جاءت ﴿مِن﴾ الأولى في ﴿مِن شَجَرٍ﴾ للتَّبعيض، وهي تُفيد أنَّ الأكل واقعٌ من بعض جنس الشَّجر لا كلِّه، لا سيَّما وقد وُصِف هذا الشَّجر بعدُ بكونه من زقّوم، فيفيد أنَّ المقصود هو نوع مخصوص من الشَّجر لا مطلق

الشَّجر، وتحتمل أن تكون ابتدائيَّة، وهو أشهر معانيها[1]، والمعنى: فهُم آكلون أكلًا يؤخذ من شجر الزَّقّوم[2]، وذهب بعض النُّحاة إلى أنَّ كونها للتَّبعيض راجع إلى ابتداء الغاية[3]، وهو ظاهرٌ في الآية.

نكتة تنكير لفظ ﴿شَجَرٍ﴾:

إبهام الشَّجر في سياق الوعيد تهديد، فبيانه مزيد تهويل

نُكِّر لفظ ﴿شَجَرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ للنَّوعِ، فإنَّ شجر الزَّقّوم من الغيبِ المحض، ونمو الشَّجر في الجحيم ممّا لا يُحيط به إدراك اعتياد البشر، ويدخل السّامع عندها في حالة من الغموض والرُّعب والتَّرقُّب، أيُّ شجرٍ هذا؟ ثمَّ يأتي بعدُ التَّبيينُ بقوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾؛ ليكشف عن حقيقة هذا الشَّجر المبهم، فإذا هو زقّوم، وهو شجر النّار، شديد المرارة، قبيح الخلقة، بشع الطَّلع.

ولمّا كان السّياق في مقام التَّهديد، وبيان ما أُعدَّ لهؤلاء المكذِّبين الضّالّين من العذاب المقيم؛ ناسب أن يُذكَر طعامهم بأبشع صورة وأقبح وصف، فجيء بقوله تعالى: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ على وجه التَّنكير؛ تنفيرًا وتعظيمًا للهول[4]؛ إذ الشَّجر في العرف مظنَّةُ النَّفع والثِّمار، فإذا نُكِّر؛ دلَّ على شجرٍ غير معهود، قد خالف ما جرت به العادة، فكان في التَّنكير إشعارٌ بأنَّه شجر لا يُعرَف إلّا بالبشاعة والقبح والضَّرر، ثمَّ أتبع ذلك بقوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾؛ بيانًا لهذا الشَّجر المنكر، فكأنَّه قيل: من شجرٍ هو في غاية القبح، ذلك أنَّه من زقّوم، وما أدراك ما الزَّقّوم؟ شجرةٌ اجتمعت فيها صفات الشِّدَّة والنَّتن والبشاعة، تُضطرهم إلى الأكل منها على كرهٍ وقهر، حتَّى يملؤوا بطونهم ملْئًا لا اختيار فيه، بل إكراهًا لا فكاك عنه[5].

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 307، والمُبرِّد، المُقتضب: 4/ 136.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.
(3) المُبرِّد، المُقتضب: 1/ 44.
(4) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

فجاء التَّنكير في ﴿شَجَرٍ﴾؛ تمهيدًا للتَّرويع، والإبهام أوَّلًا، ثمَّ البيان بعدها يزيد في تفخيم الأمر وتهويله، وهذا من بديع النَّظم؛ إذ يُذكَر الشَّيء منكَّرًا لإثارة التَّوجُّس، ثمَّ يُعرَّف بما يزيد النُّفوس نفورًا منه؛ تحقيقًا للغاية من التَّهديد، وتناسبًا مع مقام العقوبة الَّتي يستحقُّها أولئك المكذِّبون الجاحدون[1].

نكتة إبدال ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ من قوله: ﴿مِن شَجَرٍ﴾:

نكتةُ إبدالِ ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ من قوله: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ بدلًا من أن يقول: (من شجر الزَّقّوم) - كما في آية الدُّخان - ترجع إلى أسلوبٍ بليغٍ ومعنًى دقيق، يتَّصل بمقام التَّهويل والتَّشنيع والإنذار، ويتلاءم مع بنية السّورة في ترتيبها وتصعيدها التَّصويريِّ، وبيان ذلك أنَّ الإبهام قبل الإفهام أدعى للتَّهويل والتَّشويق؛ إذ ابتدأ الكلام بلفظٍ منكرٍ غير معهود: ﴿مِن شَجَرٍ﴾؛ لتتوارد إلى ذهن السّامع احتمالاتٌ شتّى، ثمَّ أتبعها بقوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾، فإذا هو الشَّجر الأشدُّ نُكرًا، والأبغض طبعًا.

التَّدرُّج في تهويل الموقف داعٍ إلى إرادة التَّهديد وتشديد الوعيد

ولو قيل: (من شجر الزقّوم)؛ لأفاد البيان المجرَّد، لكن قوله: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾، فيه تدرُّج من العامِّ إلى الخاصِّ، يُشبه صدمةً إدراكيَّة للمتلقّي، فيكتنف ذهنه الاستغراب والخوف، ثمَّ يرد عليه البيان كالصّاعقة.

ففي الدُّخان جاء السّياق إخباريًّا لا تقريع فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: 43 - 44]، بينما في الواقعة جاء السّياق مباشرًا في خطاب الضّالّين المكذِّبين، وتعداد ما سيلاقونه من صور العذاب، فجاء التَّعبير مُتدرِّجًا تهويليًّا على طريقة المَشاهد المتصاعدة.

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾:

بلاغة البيان بعد الإجمال في تصوير العذاب

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ بيانيَّة؛ لأنَّ الشَّجر هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

المُسمَّى بالزَّقوم[1]، فهي تُستعمَل لبيان الجنس أو النَّوع المخصوص[2]، فهي تفصيلٌ بعد إجمال، والمعنى: (لآكلون من شجرٍ هو شجرٌ من الزَّقّوم)، والمراد: بيان حقيقة هذا الشَّجر المبهم في اللَّفظ السّابق، وتعيين نوعه بما يزيد المشهد فزعًا ونفورًا.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

ملءُ البطون نتيجةٌ حتميَّة لأصحاب النّار، وهي تصويرٌ مروِّع لهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ فاء تفريع وسببيَّة، تفيد أنَّ امتلاء البطون مترتِّبٌ على الأكلِ من شجر الزَّقّوم، فهو نتيجة حتميَّة له لا مفرَّ منها[3]، فالأكل منه لا يكون مجرَّد ذوق عارض، بل هو أكل يبلغ بالآكل حدَّ التُّخَمَة، وذلك ممّا يزيد الموقف بشاعة ورهبة؛ إذ يُراد به تصوير حالهم تصويرًا متتابعًا مرعبًا، يبدأ فيه العذاب بالأكل، ولا ينتهي إلّا بامتلاء البطون بما يسوؤهم، ويُعذِّبهم، وجيء بالفاء دون الواو أو (ثمَّ)؛ للدَّلالة على سرعة التَّرتُّب وشدة الاتِّصال، فكأنَّ ملء البطون لاحق لا ينفكُّ عن الأكل، وهو ما يُبرز المعنى التَّهديديَّ، ويُشعر القارئ أنَّ الأمر لا مهرب منه، بل هو انحدار متَّصل في سلسلة من العذاب تبدأ باللُّقمة، وتنتهي بامتلاء قسريٍّ مقصود.

دلالة استعمال مفردةِ الملء دون الشَّبع:

امتلاء البطون أكلٌ كثيرٌ كريهٌ وشبع معدومٌ

التَّعبير بلفظ الملء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ بدلًا من أن يُقال: (فشابعون)، أو ما يُؤدّي معناه، يُبرز فرقًا بلاغيًّا دقيقًا يُصوِّر فظاعة الموقف ومقدار العذاب، فالملْءُ يدلُّ على امتلاء الحسِّ والجوف امتلاءً كمّيًّا لا كيفيًّا، أي: إنَّه يشبع حيّز البطن من غير أن يحقِّق لذَّة الشَّبع، أو يزيل ألم الجوع، بل قد يزيده، وهو ما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 357.
(3) الأمالي النّحويّة، وابن الحاجب، ص: 4.

عبَّرت عنه آية أخرى بقوله تعالى عن طعام أهل النّار: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية: 7].

وهذا الاستعمال القرآنيُّ يُنبئ عن عذابٍ مركَّب؛ إذ يُرغَم الكافر على أن يملأ بطنه من طعامٍ كريهٍ مؤذٍ، لا رغبة فيه، ولا راحة منه، فهو عذاب في الإكراه، وعذاب في الطَّعم، وعذاب في الأثر، ولمّا كان (الشَّبع) يدلُّ على حصول الرِّضا والسَّكينة بعد الأكل، وهي نعمة من نعم الله، فإنَّ المقام مقامُ تهديد لا يُناسبه هذا المعنى الإيجابيُّ، فجاء لفظ (الملء) بدلًا عنه؛ ليصوِّر صورة النَّهم القهريِّ الَّذي لا راحة فيه، وفيه نوع من السُّخرية المُرَّة بالمكذِّبين، الَّذين كانوا مترفين يملَؤون بطونهم من طيِّب الطَّعام، فإذا هم في الآخرة يملَؤونها من شجر الزَّقّوم لا عن لذَّة بل عن اضطرار مهين.

دلالة التَّعبير باسم الفاعل ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

كفى بالنّارِ وعيدًا أن يكون ملءُ البطونِ عذابًا

التَّعبير باسم الفاعل ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ بدلًا من الفعل المضارع (يملؤون)؛ لإفادة الثَّبات والاستمرار، فإنَّ اسم الفاعل يدلُّ على أنَّ الفعل أصبح وصفًا راسخًا لصاحبه، لا طارئًا ولا محدودًا، فهُم في حالة امتلاءٍ دائم مستمرٍّ، لا يقتصر على لحظة أو موقف، فكأنَّهم لا يعرفون من الطَّعام إلّا الزَّقّوم، ولا يعرف الزَّقّوم من الآكلين إلّا أولئك، وقد لصق الفعل بهم لصوق الصِّفات بالذَّوات، والتَّوكيد والتَّحقُّق؛ إذ استُعمِلت الجملة الاسميَّة المبدوءة بـ(إنَّ)، ثمَّ اللام في ﴿لَآكِلُونَ﴾ ثمَّ ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾؛ لتوكيد وقوع هذه الأفعال من غير تردُّد أو شكٍّ، على وجه الاستعلاء التَّقريريِّ التَّهكُّميِّ، كأنَّما يقال: أنتم لا محالة آكلون ومالئون وشاربون، ولا مهرب لكم من هذا المصير.

نكتة تأنيث الضَّمير ﴿مِنْهَا﴾:

تأويل المؤنَّث بشجرة الزَّقّوم

تأنيث الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ راجع إلى لفظ ﴿شَجَرٍ﴾، وقد أُنِّثَ الضَّمير ﴿مِنْهَا﴾؛ لأنَّ ضمائر الجمع

لغير العاقل، كـ (الشَّجر)، تُعامَل في لغة العرب غالبًا معاملة المؤنَّث، فجاء التَّأنيث على الاعتبار المعنويِّ للجمع[1]، أو على تأويل ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾.

غرض تقديم ﴿مِنْهَا﴾ على المفعول:

لا يأكلُ أهل النّار في النّار إلّا من شجرةِ النّار

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنْهَا﴾ على المفعول به ﴿ٱلْبُطُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾؛ لإبرازِ ما يُملَأ منه، أي: الزَّقّوم، وتقديمُه في هذا الموضع يُفيد التَّهويل والتَّشنيع، وقصر ملْء البطون على هذه الشَّجرة، فالمعنى: لا يملؤون بطونَهم إلّا من هذا الزَّقّوم البغيض، لا من غيره، فهو طعامُهم الَّذي لا طعامَ لهم غيره.

نكتة جمع لفظ ﴿ٱلْبُطُونَ﴾:

تصوير عذاب البطن في مشهد الزَّقوم

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى التَّعميم والاشتمال، أي: إنَّ جميع البطون ستُملأ من هذا الشَّجر الخبيث دون استثناء، وكلُّ فرد من هؤلاء الضّالّين المكذِّبين يملأ بطنه ملْئًا تامًّا، لا مجرَّد ذوق أو لقيمات، بل ملءٌ يتناسب مع ما قبله من وصف الجوع المهلك وما بعده من شرب الحميم.

نكتة تعريف لفظ ﴿ٱلْبُطُونَ﴾:

بطون المعذَّبين معلومةٌ غير مجهولة حاضرةٌ في النّار آكلةٌ من طعامِها

تعريف ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، بـ(الـ) للتَّعظيم والتَّهويل[2]؛ لتحديد تلك البطون الَّتي كانت تأكل حرامًا في الدُّنيا؛ لأنَّ المعرَّف بـ(الـ) "إنَّما صار معرفة؛ لأنَّك أردت بالألف واللّام الشَّيء بعينه"[3]، وها هي نفسها امتلأت من عذاب اللّه تعالى، ويحتمل أن تكون (الـ) عوضًا عن المضاف إليه المحذوف، والتَّقدير: بطونهم؛ إذ يجعل هذه البطون معلومة للمخاطَبين أو مشهودة يوم القيامة في مشهد مهيب، فليس المقصود بطونًا نكرة أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 310.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 462.
(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 220.

غير معروفة، بل البطون المقصودة بالعذاب المخصوص الَّذي سبق ذكره، ممّا يُظهر حجم النَّكال الَّذي أُعدَّ لهم، والتَّعريف هنا يُعطي إيحاءً بأنَّ الامتلاء لا يقع في بطون عابرة أو غير معيَّنة، بل في بطون مخصوصة منصوبة للعذاب.

بلاغة التَّعريض بذكر ملء البطون:

البطون المملوءة بالباطل في الدُّنيا ستمتلئ من الزَّقّوم في الآخرة

إنَّ في ذِكرِ (ملءِ البطون) في هذا الموضع تعريضًا بالغَ الدِّقَّة والسُّخرية المريرة من حال هؤلاء المترفين الَّذين كانوا في الدُّنيا يملؤون بطونهم من الطَّيِّبات، ويُسرفون في المآكل والمشارب، فلا يعرفون للجوع طَعمًا، ولا للحرمان وجهًا، فتاسب أن يُقابلوا في الآخرة بنظير حالهم، ولكن على وجهٍ مناقضٍ تمامًا لما ألفوه، "والمقصود من قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ تفظيع حالهم جزاءً على ما كانوا عليه من التَّرف في الدُّنيا بملء بطونهم بالطَّعام والشَّراب ملئًا أنساهم إقبالهم عليه مِن التَّفكُّرِ في مصيرهم، وقد زيد تفظيعًا بالتَّشبيه في قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، كما سيأتي"[1].

فكما ملؤوا بطونهم في الدُّنيا بغير حقٍّ؛ جوزوا في الآخرة بأن تُملأ بطونهم كذلك، ولكن ممّا يسوء، ويُهين، ويُؤلم، لا ممّا يُمتع، ويُشبع، فجاء التَّعبير بـ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾؛ ليشير إلى أنَّهم وإن وُفِّر لهم (ملء البطون)، فقد فُرِغ منه كلُّ ما فيه لذَّة وراحة، وبقي منه العذاب والاشمئزاز؛ إذ لا يغني هذا الطَّعام من جوع، بل هو شجرة الزَّقوم الَّتي شبَّهها الله بالمُهل يغلي في البطون، فهذا المقابلُ في (الملء) هو من التَّهكُّم البلاغيِّ، وجاء أسلوبُ التَّعريض؛ تعبيرًا عن عدالة الجزاء من جهة، ومكرمة البلاغة القرآنيَّة من جهة أُخرى، فإنَّه يقرِّعهم من حيثُ يظنّون أنَّهم كانوا في نعمة وعيش، فإذا بهم في يوم الجزاء يُعانون من نفس المفردات الَّتي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 310.

كانوا يتلذَّذون بها، ولكن في سياق العذاب والهوان، وهذا ممّا يُنذر، ويُرهِب المخاطَب، ويُريه أنَّ الجزاء من جنس العمل، ولكن بصورة تدمغه، ولا تُبقي له موضعًا للاعتذار أو الإنكار.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾:

بلاغة التَّرتيب والتَّعقيب في مشهد الشُّرب من الحميم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ فاءُ التَّرتيب والتَّعقيب، "فالفاء تضمُّ الشَّيء إلى الشَّيء كما فعلت الواو، غير أنَّها تجعل ذلك متَّسقًا بعضه في إثر بعض"[1]، فتفيد أنَّ الشُّرب من الحميم واقعٌ بعد الامتلاء من شجر الزَّقوم مباشرةً، دون فاصل زمنيٍّ معتبر، فهي تفيد التَّتابع السَّريع بين الفعلين.

والدَّلالة البلاغيَّة لهذه الفاء تأتي لتصوير مشهدٍ متلاحقٍ لا يُمهَل فيه أصحاب الشِّمال لحظة راحة بين طعامٍ وشراب، بل يُلحق الشَّراب بالطَّعام إلصاقًا محكمًا، كأنَّه ضرورة تفرضها شدَّة الحرِّ والحرقة والاختناق الَّتي يُسبِّبها طعام الزَّقوم، ممّا يضطرُّهم إلى التَّلهُّف على الشُّرب، لا رغبةً في الشَّراب، بل هربًا من حرِّ الطَّعام، فيكون الشَّراب عذابًا آخر يُضاف إلى سابقه، فهو تسلسلٌ مؤلمٌ محكمُ السَّبك في نظامٍ عقابيٍّ لا ينفصل بعضُه عن بعض.

دلالة ترتيب ذكر الشُّرب بعد الأكل:

شراب الدُّنيا يُخفِّف حدَّة امتلاء البطون وفي النّار يمزِّق البطون الممتلئة

رُتِّب ذكرُ الشُّرب بعد الأكل في قوله تعالى: ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ ليرسم مشهدًا متكاملًا من العذاب المتَّصل، ويعكس طبيعة التَّفاعل الجسديِّ والنَّفسيِّ عند الإنسان، ويجري على عادة البشر الَّتي فُطِروا عليها: أنَّ الآكل إذا امتلأ بطنه؛ احتاج إلى شراب يطفئ حرارة الطَّعام، ويُعين على بلعه، ويدفع أذاه[2]، ولكنَّ الشُّربَ هنا

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.

ليس للتَّرويح، بل ليضاعف البلاء، فهو ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، يزيد في العطش، ولا يرويه، ويحرق كما يحرق الزَّقوم، بل لعلَّه أشدُّ، فذِكْرُ الشُّربِ بعد الأكل فيه تعريةٌ لحالهم من كلِّ لذَّةٍ أو راحة، حتى ما اعتيد أن يكون مألوفًا - كالشَّراب بعد الطَّعام - صار هنا مُمِضًّا مهلكًا، وقد قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾، فالصّورة واحدة في شدَّتها، وإن اختلف الأسلوب.

دقَّة استعمال مفردة (الشُّرب):

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ دون (مسقَون)، في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، ذلك أنَّ السَّقيَ يكون للآخرين، فالسّاقي يَسْقي غيرَه، بينما الشّارب؛ فهو ما يتناوله الإنسان من شرابٍ؛ ليشربه لنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿نُسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [النّحل: 66]، وقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: 24]، وقال سبحانه: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21]، والمناسب هنا ما يقوم به أهل النّار من الشَّراب، فهُم الَّذي يشربون، ولا يَسْقي بعضهم بعضًا.

الشُّرب فعل الإنسان مع نفسه في تناول الشَّراب، وأمّا السّقاية؛ فمع غيره

ولمّا كان المقام في سورة الواقعة مقام تقريع وتهويل، وسياق عذاب لا كرامة فيه؛ ناسب أن يُعبَّر عن ذلك بالفعل القاسي الجافِّ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾، لا (مسقَون)؛ لإشعارهم بأنَّهم لا يُكرَمون بسقي، وإنَّما يُتركون؛ ليشربوا بأنفسهم ذلك الشَّراب المهين من الحميم الَّذي يُحرِق، ولا يَروي.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾؛ لبيان أنَّ الشُّرب واقعٌ على الأكلِ المتلئ في البطون، ففيه تضمين الشُّرب معنى الصَّبِّ، أي: فشاربون من الحميم، فصابّونه على الأكل المتلئ في البطون، وقد جاء هذا

تضمين الشُّرب معنى صبِّ الحميم في البطون

المعنى بتقديم وتأخير، واستعمال حرف الاستعلاء، بما يدلُّ على المعنى الوفير واللَّفظ الوجيز.

نكتة تذكيرِ الضَّمير ﴿عَلَيْهِ﴾:

جاء استعمال الضَّمير المذكَّر في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ على تأويل (الزَّقوم)[1]، أو على جعل الشُّرب على الامتلاء، أو "لأنَّه عائد على الأكل المستفاد من قوله: ﴿لَءَاكِلُونَ﴾، أي: على ذلك الأكل بتأويل المصدر باسم المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق"[2]، فهم آكلون من شجرة الزَّقوم، فمالِئون منها البطون، فشاربون على الأكل الممتلئ في البطون، وقد تقدَّم الضَّمير المؤنَّث في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، على تأويل شجرة الزَّقوم، ويُفهَم من هذا أنَّ التَّعبير القرآنيَّ قد راعى في الضَّمائر مرونة الرُّجوع إلى اللَّفظ تارةً، وإلى المعنى تارةً أخرى، بما يخدم فصاحة السّياق وبلاغته، فاستُخدِم الأسلوب القرآنيُّ في التَّفنُّن البيانيِّ بين التَّأنيث والتَّذكير؛ ليدلَّ على دقَّة التَّرابط بين اللَّفظ والمعنى، وإحكام التَّناسب في بناء الصّورة المرعبة لطعام أهل النّار.

مرجعُ الضَّمير المذكَّر على الأكل الممتلئ في البطون

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾، ابتدائيَّة تدلُّ على ابتداء الغاية في الشُّرب[3]، أي: إنَّهم يبتدئون شربهم من هذا الحميم، لا من غيره، فهو أوَّل ما يصل إليهم في حال العطش والاحتياج بعد الأكل من شجر الزَّقوم، ومعنى التَّبعيض حاضرٌ؛ إذ شرابهم هو بعض الحميم لا كلُّه.

ابتدائيَّة الشُّرب من الحميم بعض الحميم لا كلِّه

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾:

تعريفُ لفظ ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 310.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 307.

عهديٌّ ذكريٌّ، فقد سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، أي: فشاربون عليه من الحميم المذكور سابقًا، فكأنَّه قال: من ذلك الماء الحميم المعهود في وصف العذاب، الَّذي لا تخفى فظاعته على سامع لما سبقه من ذكر الطَّعام المنتن والشَّراب المُلهِب، فالتَّعريف هنا يحمل نَفَسًا استحضاريًّا وعهديًّا معنويًّا، أي: من الحميم الَّذي هو ممّا يُعلَم وصفه من مقام العذاب وسياقه، لا من أي ماء حارٍّ.

الحميم شرابُ أصحابِ الشِّمال بديل أشربة الدُّنيا المحرَّمة

وفيه نكتة بلاغيَّة دقيقة، وهي أنَّ التَّنكير قد يوحي أحيانًا بتهويل المجهول، لكنَّ التَّعريف في مقام كهذا أدلُّ على فظاعة المعلوم؛ إذ قد استقرَّ في النُّفوس من تكرار ذكر الحميم في مواضع القرآن ما يُشعر بأنَّه شراب لا يُطاق، يُعذَّب به أهل النّار، يُقطِّع الأمعاء، ويُهرِق ما في الجوف.

وإنَّما قال: ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ مع أنَّ السّياق محتمل لنكرة؛ ليُرجع الأذهان إلى ذلك النَّوع المخصوص من العذاب المعروف عند من تَبَلَّغَ القرآن، وليدلَّ على أنَّه ليس حميمًا أيًّا كان، بل هو الحميم الكامل في الإحراق والهول، الَّذي لا يُشرَب طوعًا، وإنما يُسقى قهرًا.

نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿لَآكِلُونَ﴾؛ لإفادة تعقيب أكل الزَّقوم بـ ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ دون فترة ولا استراحة[1]، وهي هنا للعطف والسَّببيَّة[2]، وهي تُعبِّر عن التَّتابع الحتميِّ في صور العذاب، فكما أنَّهم آكلون، فهم مالئون، ومن ثمَّ شاربون، وكأنَّ هذه الأفعال الجارية بهم تأتي متلاحقة، متتابعة، لا فاصل بينها، وكلُّ واحدة تُفضي إلى الَّتي تليها، على نحو يُرسِّخ مشهد الانحدار التَّدريجيِّ في ألوان الهوان والعذاب.

شربُ الحميم حتميٌّ سريع بعد أكل الزَّقوم لما فيه من مظنَّة تخفيف كراهة الزَّقوم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 311.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 298، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 158.

فائدة تكرار ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾:

توكيد العذاب وتصعيده وتصويره في مشهد الشُّرب المهين

كُرِّر ذكر لفظ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾؛ لتتجلّى في المقام الخطابيِّ والبلاغيِّ الَّذي يقتضي توكيد المشهد وتعميق وقعه في نفس السّامع، واستحضار تلك الصّورة الفظيعة.

ففي المرَّة الأولى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾، يَردُ الفعل مع المتعلِّق به ﴿عَلَيْهِ﴾؛ للدَّلالة على ضرورة الشُّرب المفروض والمكره عليه الشّارب، وكأنَّهم يُسقَون على الزَّقوم شربًا قهريًّا، من ماء مغليٍّ بالغ الحرارة.

ثمَّ في الثّانية: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، يتكرَّر اللَّفظ ليُبنى عليه وصف الشُّرب، لا نفس فعله، ويُلحَق به تشبيه ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، أي: شرب الإبل العطشى الَّتي لا تُروَى، فتُستعاد صورة العذاب من جهة الشُّعور بالعطش الدّائم، لا بمجرَّد فعل الشُّرب.

فالتَّكرار هنا توكيدٌ من جهة، وتصعيدٌ من جهة أخرى: فالأولى تُصوِّرهم، وهم يشربون، والثّانية تصف نوع شربهم؛ لتكون الثّانية كاشفة عن حالهم النَّفسيِّ والجسديِّ، لا المادّيِّ فقط، فهو توكيد لفظيٌّ لنظيره، فائدته زيادة تقرير ما في هذا الشُّرب من الأعجوبة، وهي أنَّه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم، فيزيدهم تفظيعًا لأمعائهم؛ لإفادة التَّعجيب من حالهم تعجيبًا ثانيًا بعد الأوَّل، فإنَّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تَشرَب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضًا[1].

بلاغة حذف كاف التَّشبيه:

شبَّهتِ الآية الكريمة شرب المكذِّبين في الجحيم بشرب الهيم،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 311.

الَّتي لا يرويها الماء، لداء يصيبها يشبه الاستسقاء، فلا تزال تعبُّ في الشَّراب حتَّى تهلك، أو تسقم سقمًا شديدًا، ووجه الشَّبه أنَّ كلًّا منهما يشرب، ولا يرتوي، ممّا يحثُّه على طلب المزيد من الشَّراب"[1].

تنزيل المكذِّبين منزلة الإبل الهيم في طريقة الشُّرب والحاجة إليه

والتَّشبيه بليغ لحذف كاف التَّشبيه ووجه الشَّبه في قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ بدل أن يقول: (كشرب الهيم)؛ إذ يُعدُّ ذلك من قبيل الإيجاز البيانيِّ الَّذي يُضفي على المعنى شدَّة وقوَّة، بل يُحوِّل التَّشبيه إلى تحقيق وتصوير مطابق، فيُصبح المشبَّه هو نفس المشبَّه به في قوَّة التَّصوير، فحذْفُ الكاف يُفيد المبالغة في التَّشبيه؛ إذ لا يُقال: ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ إلّا وقد أصبح الشُّرب نفسه هو بعينه شُرب الهيم، فذابت الفروق، وتماهى الحالان، وهذا أبلغ من (كشرب الهيم) الَّذي يوحي بنوع من التَّفاوت، وتحقيق صورة العطش الشَّديد، فـ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ هي الإبل المصابة بداء العطش المزمن، تشرب، ولا تروى، وجعل النَّظمُ القرآنيُّ شُرب أهل النّار نفس هذا الشُّرب؛ ليُصوِّر حالهم النَّفسيَّ والبدنيَّ في أوج العذاب والظَّمأ، وكأنَّهم هم الهيم في حقيقتهم لا مجازًا.

بلاغة الجناس الاشتقاقيِّ في لفظ الشُّرب:

بلاغة إيقاع اللَّفظِ وتكثيف مشهد العذاب فالشُّرب اضطرار لا اختيار

في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ ورد الجناس الاشتقاقيُّ بين (شاربون) و﴿شُرۡبَ﴾، وهو من الأساليب البلاغيَّة الَّتي تزيد المعنى رسوخًا في النَّفس، وتُكسب العبارة قوَّة إيقاعيَّة ولفظيَّة، وهذه الصّياغة تُفيد إحكام الصّورة وتوكيدها، فالتَّكرار يُرسِّخ في الذِّهن أنَّ هذا الفعل واقع - لا محالة - لا هو محتمل، ولا هو مؤقت، بل هو الشَّأن الدّائم لأهل هذا المصير، كما أنَّ التَّكرار الصَّوتيَّ يعطي إيقاعًا ثقيلًا، كأنَّه يُحاكي ثِقَل الشَّراب على البطون المحترقة، وثِقَل المصير عليهم، وكأنَّ التَّلازم بين (شاربون) و﴿شُرۡبَ﴾ لا ينفكُّ،

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 27/ 121.

فهُم لا يشربون فحسب، بل شربهم هو عينُ شُربِ الهيم، شرب بلا نهاية، وعطش لا يروي، واستعمال اسم الفاعل يدلُّ على الدَّيمومة والوقوع، والمصدر يدلُّ على الكيفيَّة والنَّوع، فكأنَّه قيل: حالهم أنَّهم في شربٍ دائم، وشربهم شرب مذلٍّ، شرب اضطرار لا اختيار، وشرب لا يُغني، ولا يروي.

دلالة إضافة ﴿شُرْبَ﴾ للفظ ﴿ٱلْهِيمِ﴾:

تصوير بالغ لشدَّة العطش وبيان حاله

أُضيف لفظ ﴿شُرْبَ﴾ إلى ﴿ٱلْهِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾؛ ليكشف عن نوع الشُّرب، الَّذي يوحي بأنَّ حالهم صارت من جنس حال الهيم تمامًا، وكأنَّها ضربٌ من التَّناسخ في الصِّفات والطِّباع، لا في الصّوَر والأجساد.

براعة استعمال غريب مفردة ﴿ٱلْهِيمِ﴾:

تنزيل المكذِّبين منزلةَ الحيوان للتحقير، وبيان عطشهم الدّائم للتهديد

الهيم: جمع أهيم[1]، وهو البعير الَّذي أصابه الهُيام بضمِّ الهاء، وهو داء يجعل البهيمة تشرب، ولا ترتوي، تظلُّ تلغ في الماء دون حدٍّ ولا شبع؛ لشدَّة ما بها من عطش حارق لا يُسكته ماء، ولا يُخفِّفه شراب، فاختيار هذه الكلمة النّادرة جاء لا لغرابتها، ولكن لقوَّة دلالتها وكثافة صورتها، وباستحضار هذه الصّورة الحيوانيَّة المعروفة لدى المخاطَبين من العرب، يوقظ النَّصُّ في الذِّهن مشهدًا صارخًا لهؤلاء الضّالّين المكذِّبين؛ إذ يشربون في النّار شرابًا حارًّا، كما تشرب الهيم، لا للارتواء، بل لأنَّه عذاب متجدِّد في صورة شرب، وقد أغنى هذا التَّعبير المفرد المكثَّف عن شروح مطوَّلة، فدلَّ على شدَّة الظَّمأ، واستمرار الألم، وغرابة الحال، من غير حاجة إلى إسهاب.

ويُعمِّق هذا الاستعمال فكرة التَّماثل بين البهيميَّة في السُّلوك والجزاء، فهُم في حياتهم كانوا يسيرون خلف شهواتهم دون قيد،

(1) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1205.

يَنْهَمون في الملذّات كما تَنْهَمُ الهيم في الماء، فكان جزاؤهم أن يُعامَلوا بما يناسب ما صاروا إليه من الغفلة والانحدار، فالهيم هنا رمزٌ للانفلات من ضوابط العقل والحقِّ، فكان تشبيه شربهم بشربها تمثيلًا لحالهم لا في الصّورة فحسب، بل في الحقيقة والمصير.

بلاغة استعمال اسم الإشارة القريب مسندًا إليه:

مباغتةُ الكافرين في التَّعريف بنُزُلهم الثّابتة يوم القيامة

لمّا انقضى السّياق بتصويرٍ مروِّع لمشهد الجزاء، من أكلٍ من شجر الزَّقوم، فملء للبطون، فشرب من الحميم، فشرب كشرب الهيم، جيء بخاتمة تلتقط النَّفس، ولكن لا تُخفِّف الألم، بل تزيده ترسيخًا، فقال ﷻ: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، فجاءت الإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ اسم الإشارة القريب، لا البعيد؛ إذ لم يقل: (ذلك)، وذلك لما فيه من قصد تحقيرهم، فضلًا عمّا فيه من دلالةٍ على تحقيق الحضور والتَّقريب إلى الحسِّ، فالمشهد الَّذي وُصف قد صار حاضرًا بين أعينهم، لا يُنتَظر وقوعه، بل يُشهَد الآن، فيقال: هذا هو، لا ذاك؛ ليزيد الأمر إيقاعًا في النَّفس، وتوكيدًا لوقوع العذاب، وتجسيمًا لصورته.

براعة التَّهكُّم في استعمال مفردة (نزل):

اجتماعُ التَّهكُّم بالتَّهديدِ من براعة أسلوب القرآن في الوعيد

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (نُزُل) في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ لتتجلّى في نقل المعنى من مجرَّد (عقوبة) أو (جزاء) إلى معنى أقسى وأوقع في النَّفس، من جهة الأسلوب، ومن جهة الإيحاء، فالنُّزل: الرِّزق الَّذي يعدُّ للنّازل تكريمًا له، وما يُعدُّ لهم أوَّل قدومهم مكان ما يعدُّ للضَّيف أوَّل حلوله كرامة له[1]، ففيه تهكُّم[2]، فإذا كان هذا إكرامهم يوم الدّين فكيف عذابهم؟ وهذا أسلوب قرآنيٌّ بديع يجمع بين التَّهكُّم والتَّهديد في آنٍ معًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

دلالة إضافة النُّزل إلى الضَّمير:

العذابُ أُعدَّ للظّالمين كما يُعدُّ النُّزُل للضّيفان في الدُّنيا

إضافة لفظ (النُّزُل) إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، تدلُّ على تخصيص العذاب بهم؛ لأنَّ الإضافة بمعنى اللّام، فهو عذاب معدٌّ لهم، لا يشاركهم فيه غيرهم، وكأنَّه حقٌّ لازم لهم، لا انفكاك عنه، يستحقّونه جزاءً وفاقًا لما اقترفوه في الدُّنيا، وهذه الإضافة تفيد أنَّهم لا يتلقّون هذا العذاب مصادفة أو من غير حساب، بل هو نُزُلهم الَّذي أُعدَّ خصيصًا لهم، كما يُعِدُّ المضيف لنزيله ما يناسب حاله، ولكنَّ الفرق أنَّ ما أُعِدَّ لهم هو الإهانة والهول، لا الإكرام والرّاحة، فهو نُزُلٌ جاء على خلاف ما تعوَّدوه من نُزُل التَّرف والنَّعيم في الدُّنيا.

نكتة تعيين يوم الدّين وقتًا للنُّزل:

الانتقالُ من العمومِ الزَّمانيّ إلى الخصوصِ الغائيّ المقترن بمعنى الجزاء

التَّعبير بلفظ ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ بعد أن سبق ذكره بوصف ﴿يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ هو من روائع البيان القرآنيِّ في الانتقال من العموم الزَّمانيِّ إلى الخصوص الغائي؛ إذ ليس المقصود من التَّكرار إعادة الزَّمان لذاته، بل لتعليله وبيان ما يكون فيه، فالوصف بـ﴿يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ يُفيد تحديده في علم اللّه ووقوعه الحتميَّ، دون أن يُذكر غرضه أو وظيفته، فلما تمَّ وصف أحوال الأشقياء وما أُعِدَّ لهم من العذاب، جاء البيان بأنَّ هذا كلَّه واقع ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء والمحاسبة والمقابلة بالأعمال، فهو تعيين لمعنى اليوم المعلوم لا مجرَّد تعريفه، وجعل ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ وقتًا لنزلهم مؤذن بأنَّ ذلك الَّذي عبَّر عنه بالنُّزل جزاءٌ على أعمالهم، وهذا تجريد للتَّشبيه التَّهكُّمي وهو قرينة على التَّهكُّم[1].

فائدة اختيار لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دون الحساب أو القيامة:

آثر النَّظم الكريم اختيار لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دون أن يُقال: (الحساب)

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 312.

أو (القيامة)؛ لِما في كلمة الدّين من دقَّة معنويَّة بالغة، تفوق سائر الألفاظ الَّتي قد تدلُّ على زمان الجزاء أو مكانه، وهو يرتبط بما جاء في شأنِ جزاء السّابقين في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فإذا قيل: ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، فقد أُشير إلى وجه الجزاء القائم على العدل والمقابلة، وفيه معنى ذُلِّهم وانقيادهم مذلولين، وهذا المعنى أدقُّ وأكثر مناسبة للسّياق الَّذي جاء فيه وصف الضّالّينَ المكذِّبينَ وما يُعِدُّه الله لهم من العذاب، فلو قيل: (يوم الحساب)؛ لأوهم أنَّ المقصود هو عدُّ الأعمال ووزنها، ولو قيل: (يوم القيامة)؛ لأوهم أنَّ السّياق غايته إحياء الموتى فحسب، أمّا ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾؛ فهو يتضمَّن قيامهم ومحاسبتهم ومجازاتهم على وجه الاستحقاق العادل، ففيه تأصيلٌ للعدلِ الإلهيِّ في اليوم السَّرمديِّ.

الـجـزاء على أعـمـالِ العبادِ بـيـانٌ لـلـعـدلِ الإلهيِّ في اليوم السَّرمديِّ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشُّرب والسَّقي:

(الشُّرب) يدلُّ على الفعل الإراديِّ الصّادر عن الشّارب، أي: إنَّه هو الَّذي يباشر تناول الماء، راغبًا أو دافعًا نفسه إليه[1]، بخلاف (السَّقي)، فهو ما يُعطى للآخر، ويكون فيه طرف فاعل يُقدِّم السّائل، وآخر يتلقّاه، وقد يحصل مع الرَّغبة أو بدافع القسر.

الـشُّـرب فعل ذاتيٌّ، والسَّقي ما يُقدَّم للآخر

(1) الصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة: 2/ 167، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 267.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"